مجلة الشهاب • المجلد: 07، العدد: 03 (2021م) • ص ص 547 - 560
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)

التواصل العلمي بين جربة ووادي مزاب
أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي (ت: 1187هـ) أنموذجًا

Scientific Communication between Djerba and Oued Mizab
Abu Ya`qub Yusuf bin Muhammad Al-Musabi
(T: 1187 AH) as a model

ط.د/ عمر دجال *
قسم العلوم الإسلامية، جامعة غرداية، (الجزائر)
omar.dedjel@univ-ghardaia.dz

أ.د/ محمد حدبون
قسم العلوم الإسلامية، جامعة غرداية، (الجزائر)
makakou2@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/05/01 تاريخ القبول: 2021/09/21 تاريخ النشر: 2021/11/14

ملخص: تكشف المصادر والدراسات عن علاقات وثيقة بين مختلف مواطن الإباضية، حيث تعود بدايتها بين جربة ووادي مزاب إلى عهد مؤسس الحلقة أبي عبد الله الفرسطائي والتي اتخذت شكل هجرات العائلات بين الجانبين وانتقال العلماء ورحلات الطلبة العلمية والإفادة من كتب نفوسة وجربة، وتبادل الزيارات والمراسلات.

ويعدُّ أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي نزيل جربة أحد علماء الإباضية في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري، حيث ولد بمليكة (وادي مزاب)، ثم استقر مع عائلته بجربة، وأسهم في حركتها العلمية بالتدريس والتأليف، كما كان له حضور اجتماعي لافت، فقد انتهت إليه مشيخةُ حلقة العزابة. وتولى مهمة مفتي جربة ورئيس مجالس الحكم فيها.

الكلمات المفتاحية: التواصل العلمي؛ جربة؛ وادي مزاب؛ أبو يعقوب يوسف المصعبي.

Abstract : Sources and studies reveal close relations between the various citizens of Ibadism. These relations between Djerba and the Mzab Valley dates back to the era of the founder of the circle, Abu Abdullah Al-Farsaitai, in the form of family migrations between the two sides, the movement of scholars, scientific trips of students, benefit from Nefusa and Djerba books, and the exchange of visits and correspondences. Abu Ya`qub Yusuf bin Muhammad al-Musabi, a resident of Djerba, was one of the Ibadi scholars in the eleventh and twelfth century AH. He was born in Malika (Wadi Mizab). Then, he settled with his family in Djerba, and contributed to its scientific movement by teaching and writing, as he had a remarkable social presence. To him the sheikhdom of the Azzaba circle to assume the role of the Mufti of Djerba and the head of its governing councils..

Keywords: Scientific communication; Djerba; M'zab; Abu Ya`qub Yusuf Al-Musabi.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الصادق الأمين.

أقام الله ﷻ الكونَ على سنن مطردة لا تتخلَّف، وكثير منها ينسحب على حياة البشر أفرادا وأمما. ومن هذه السنن: سنة القوة والضعف التي فطر الله الناس عليها يقول تعالى: ﴿ اللَّهُ الذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنم بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم:54].

ولم يشذ عن هذا القانون مختلف مواطن الإباضية، حيث تجدها في فترات زمنية عامرة بالعلماء، مزدهرة بالمدارس والمساجد، وقد تضعف في فترات زمنية أخرى، فيشيع الجهل، وتكثر الفتن، ويتراجع المدد العلمي، وتبرز آثار هذا الانتكاس على الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية.

وقد أثمرَ عرفُ تبادل الزيارات بين مواطن الإباضية عبر قرون إلى تجاوز هذا الضعف والحد من استمراره، عن طريق نجدة معرفية لبعضهم البعض.

اتخذ هذا التواصل أشكالا متنوِّعة، ونتج عنه تفاعل علمي انتعش بالعطاءات المتبادلة، حيث ينفر طلاب من المناطق التي تراجع فيها العلم إلى مواطن الإشعاع للتزوُّد، ثم الرجوع إلى أهلهم منذرين، أو يوفَد علماءُ راسخون من مواطنهم إلى حيث الحاجة إلى إحياء الدين ونشر العلم وبث الدعوة والخير، كما حصل بين جربة ووادي مزاب ونفوسة وغيرها من مواطن الإباضية في فترات زمنية مختلفة.

تقودنا هذه الدراسة إلى رصد مظاهر التواصل العلمي بين جربة ووادي مزاب، من خلال أنموذج العالم أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي نزيل جربة، إذ يصعب استيفاء جوانب التواصل بين جربة ووادي مزاب الممتدة من القرن 5هـ إلى العصر الحالي. فكان الكشف عن هذه المظاهر ببيان أثر أبي يعقوب المصعبي الذي قدم من وادي مزاب في تنشيط الحركة العلمية بجربة.

تنطلق هذه الدراسة من إشكالية رئيسة هي:

-ما هي مظاهر التواصل العلمي بين جربة ومزاب من خلال الإسهامات العلمية والاجتماعية لأبي يعقوب يوسف بن محمد المصعبي في جربة؟

تتفرَّع عن الإشكال الرئيس جملة أسئلة هي:

-كيف كانت علاقة مزاب بجربة؟ وكيف أثَّرَ ذلك على الحياة العلمية للموطنين.

-هل استطاع أبو يعقوب المصعبي أن يثري الحياة العلمية بجربة؟ وما هو أثره المعرفي على الحياة الاجتماعية فيها؟

قسَّمت خطة هذه الدراسة إلى أربعة مطالب: تناولت في المطلب الأول التعريف بالمصطلحات التي عليها مدار الدراسة، ثم خصَّصت المطلب الثاني للحديث عن تطور التواصل العلمي بين جربة ووادي مزاب ومظاهره.

أما المطلب الثالث فكان للتعريف بأبي يعقوب المصعبي وآثاره. لأُفرِد المطلب الرابع لبيان دور أبي

يعقوب المصعبي في تنشيط الحركة العلمية بجربة.

2. المطلب الأول: تحديد مصطلحات الدراسة

1.2. تعريف التواصل العلمي :

أ- تعريف التواصل:

مصدر من مادة "وَصَلَ": وَصَلَ الشيءَ بالشيءِ يَصِلُه وَصْلاً وَصْلَةً وصِلة، واتصل الشيء بالشيء: لم ينقطع، والوصل: ضد الهجران. والتواصل: ضد التصارم (ابن منظور، 1414هـ، 726/11، 728)، وبهذا فهو يدل على معنى الجمع والترابط والتتابع والالتئام. جاء في معجم مقاييس اللغة: «الواو والصاد واللام: أصلٌ واحد يدلُّ على ضمِّ شيءٍ إلى شيءٍ حَتَّى يَعْلَقَه. ووَصَلْتُه به وَصْلاً. والوَصل: ضِدّ الهِجْران» (ابن فارس، 1399هـ/1979م، 115/6).

ب- تعريف العلم:

لغة: مصدر من مادة "علم": وهو نقيض الجهل، وعلمت الشيء أعلمه علما: عرفته (ابن منظور، 1414هـ، 417/12). ومنه قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ﴾ [الرحمن:1-2]. حيث عدَّد ﷻ نعمه، وبدأ بما هو أعلى رتبها، وهو تعليم القرآن (أبو حيان، 1420هـ، 54/10).

اصطلاحا: لا يخلو كتاب من كتب الاصطلاحات من التعرض لتعريف العلم باعتبارات وتقسيمات مختلفة، نختار منها التعريف الآتي: "العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع" (الجرجاني، 1405هـ، ص199).

ج- تعريف المركَّب الإضافي "التواصل العلمي":

تَشِحُّ المصادر عن إيراد تعريف اصطلاحي للتواصل العلمي، ولذا نقترح التعريف الآتي: "هو نقل الأفكار والمعارف والخبرات بين الأفراد والجماعات لتحقيق الوعي العلمي ونشر الثقافة".

أما ما تعلَّق بمجال دراستنا وهو جانب التواصل بين الحواضر والمجتمعات الإسلامية فيمكن أن نعرفه بأنه: "التفاعل العلمي والارتباط المعرفي الذي يسهم في الحركة العلمية والوحدة الفكرية في أي عصر من خلال رحلات العلماء والطلبة والمؤلفات بين مختلف مواطن الإسلام".

2.2. الفرع الثاني : جغرافية جزيرة جربة وتسميتها وتاريخها:

تعدُّ جزيرة جربة واحدة من الجزر الموجودة في البحر الأبيض المتوسط، حيث تقع في الجنوب الشرقي للجمهورية التونسية في خليج "قابس"، بين خطي: 34 عرضًا و11 طولا (سالم بن يعقوب، 2006م، ص29).

ونظرا لموقعها الجغرافي الهام فإنها تعدُّ محطة تجارية هامة تربط بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب (سالم بن يعقوب، 2006م، ص29).

ذكر ياقوت الحموي أن جَرْبة بالفتح ثم السكون والباء موحدة خفيفة، وفي رواية: بكسر الجيم، وهي جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها البربر (ياقوت الحموي، د.ت، ص118). وذهب ابن خلدون إلى أن سكانها من البربر من قبائل لمماية وفيها من غيرهم من سدويكش من قبيلة كتامة (ابن خلدون،

1408هـ/1988م، 161/6).

دخل الإسلام جزيرة جربة على يد الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري الذي استطاع أن يقنع البربر باتباع الدين الإسلامي ويستميلهم إليه.

وكان لجهود سلمة بن سعد دورها الرئيس في اعتناق أهل جربة المذهب الإباضي مع بداية القرن 2هـ، ثم كانت بعد ذلك جربة تابعة لإمامة أبي الخطاب (140-144هـ/757-761م)، ثم إمامة الرستميين (160 – 296هـ/ 777 – 909م) (سالم بن يعقوب، 2006م، ص69)، (إبراهيم بحاز، 1435هـ/2014م، ص150). وقد التجأ إليها كثير من المغلوبين بعد سقوط الدولة الرستمية؛ هروبا من بطش الفاطميين (سالم بن يعقوب، 2006م، ص76)، فكانت بذلك مددًا لباقي مناطق الإباضية كنفوسة وأريغ ومزاب.

3.2. الفرع الثالث: موقع وادي مزاب وتسميته ونظامه:

يقع وادي مزاب على بعد حوالي 600 كلم جنوب الجزائر العاصمة، وتسميته مزاب نسبة إلى اسم سكانه الأصليين بنو مزاب.

وأصل التسمية حسب ابن خلدون: مُصَابْ، نسبة لبني مُصَابْ من بني واسين، أما أصلهم العرقي فهو من قبيلة زَنَاتة البربرية (ابن خلدون، 1408هـ/1988م)، (الحاج سعيد، 1435هـ/2014م، ص20)، (مجموعة من الباحثين، 1429هـ/2008م، 877/2). وقد اعتنق السكان المحليون الإسلام على المذهب المعتزلي، ثم انتشر المذهب الإباضي مع بداية القرن الخامس الهجري، على يد الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الفرسطائي (الحاج سعيد، 1435هـ/2014م، ص20)، (طلاي، 1970م، ص15).

أقام المزابيون على ضفاف الوادي مدنا عديدة، بقيت منها سبعة (الحاج سعيد، 1435هـ/2014م، ص16-19)، (طلاي، 1970م، ص19)، ويشرف على تسيير شؤونها هيئة دينية واجتماعية هي حلقة العزابة (طلاي، 1970م، ص47)، وتجتمع حلقات عزابة القصور في مجلس أعلى يسمى بمجلس الشيخ عمي سعيد، دوره: البت في المستجدات والنوازل الطارئة، والنظر فيما يُصلِح الحياة الاجتماعية (طلاي، 1970م، ص51)، (الجعبيري، 1975م، ص90-91).

للنظام الاجتماعي في مزاب القائم على توقير العلم، من خلال نظام المحاضر والحلقات التعليمية في المساجد ودور العلم أثر كبير في إسهام المزابيين في الحضارة الإسلامية: تدريسًا وتأليفا وعمرانا.

3. المطلب الثاني: التواصل العلمي بين جربة ووادي مزاب، تطوره ومظاهره

1.3. الفرع الأول: نشأة العلاقة بين جربة ووادي مزاب وتطورها:

تربط بين مزاب ومواطن الإباضية كجبل نفوسة بليبيا، وجبال دمر بتونس، وأريغ ومزاب بالجزائر علاقات وطيدة ضاربة في القدم، وكان للنشاط العلمي والدعوي والتنظيمي الذي اضطلع به أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي دوره الكبير في توثيق عري العلاقات بين مختلف مواطن الإباضية، بخاصة بعد وضعه لنظام العزابة الذي كان ثمرة حماس الشيخ فصيل بن أبي مسور (ت:440هـ) وأبي عبد الله محمد بن

بكر الفرسطائي، يقول الدرجيني: «... فهذا سبب قعود الحلقة المباركة عن أكرم مشاركة بين الشجرتين الطيّبتين المسورية والبكرية، بخطبة وإجابة كانتا في الله» (الدرجيني، 2016م، ص214).

توفَّرت لجربة ومزاب ظروف وأسباب شجعت التواصل العلمي بينهما، حيث تجمع بينهما وحدة فكرية متمثِّلة في المذهب الإباضي، فقد تبنيا الإباضية منذ أول ظهورها ببلاد المغرب. كما أن للتركيبة البشرية والاجتماعية والبيئية دورها في تحقيق التقارب وتيسير الجوار والمصاهرة والمواطنة (طلاي، د.ت، ص3).

2.3. الفرع الثاني : مظاهر التواصل العلمي بين جربة ووادي مزاب :

ظلَّ التواصل العلمي بين جربة ووادي مزاب وثيقا، منذ عهد مؤسس نظام الحلقة أبي عبد الله الفرسطائي إلى العصر الحديث، ويمكن رصد مظاهر التواصل العلمي بين جربة ووادي مزاب من خلال المداخل الآتية:

1- هجرات العائلات بين الجانبين:

ومن أمثلة العائلات المستقرة بمزاب، والتي تعود أصولها إلى جربة: عائلة فخار بغرداية، وعائلة آل متياز وآل ازبار ببني يزقن، وعائلة آل الحاج عيسى بالعطف.

كما نجد أسرًا من مزاب آثرت الاستقرار بجربة، كمجموع أسر آل ويرو من مليكة. يقول سالم بن يعقوب محدِّدا مقر سكنى هذه العائلات بجربة: "وأسرة المزابي تقطن بآجيم وليست بعيدة عن جامع "لِيمَسْ"، وهي الآن تؤدي صلواتها الخمس والعيدين فيه" (سالم بن يعقوب، 2006م، ص266).

2- انتقال العلماء بين جربة ومزاب:

حرص علماء الإباضية على تفقُّد مواطن إخوانهم، والارتحال إليهم؛ قياما بواجب نشر العلم والمحافظة على الدين. فمن العلماء الذين وفدوا إلى مزاب وأسهموا بقسط وافر من نهضته العلمية الشيخ سعيد بن علي بن حميد الخيري الجربي، حيث استقر في غرداية، خلال القرن 10هـ/16م.

كما اشتهر انتقال الشيخ محمد المليكي من آل ويرو مع ابنه يوسف إلى جربة في مستهل القرن 12هـ، وأثر ذلك على امتداد نظام العزابة في جربة، ودورهما في النشاط العلمي والاجتماعي بها (الجعبيري، 1975م، ص290).

3- رحلات الطلبة العلمية:

وذلك بصورة فردية أو جماعية، ومما شجَّع على هذا ما خصَّصه أهل مزاب من مأوى في بيوتات بجانب المسجد وأوقاف تعين الطلبة الوافدين، ومثله في جربة ومساجدها كالمسجد الكبير في حومة الحشان، ومساجد واد الزبيب (طلاي، د.ت، ص5).

ومن أمثلة هذه الرحلات العلمية:

رحلة أبي سليمان داود بن إبراهيم التلاتي وآخرين من نفوسة وجربة إلى مزاب؛ لطلب العلم عند

الشيخ أبي مهدي عيسى بن إسماعيل المصعبي المليكي (ت:971هـ) (علي يحي معمر، 1399هـ/1979م، ص5)، وكذا اشتمال حلقات القطب اطفيش على تلاميذ من جربة (علي يحي معمر، 1399هـ/1979م، ص453)، (طلاي، د.ت، ص5)، (أحمد بن مهني مصلح، د.ت، ص13)، (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 149/2، 398).

رحلة أبو زكرياء يحي بن صالح الأفضلي (ت:1202هـ) وابنه موسى بن يحي إلى جربة؛ لتلقي العلم عن الشيخ أبي يعقوب يوسف بن محمد المصعبي.

ومما يوثّق هذا التواصل من خلال رحلات الطلبة ما ذكره أبو اليقظان في بعض تقييداته عن تاريخ الإباضية في جربة ومزاب موردًا نصا من رسالة بعثها الشيخ باسه بن موسى (ت:1176هـ) يقول عنها: "قد عثرنا على رسالة له وجَّهها إلى إخوانه من بني مصعب وهم بجربة يزاولون دروسهم قال ما نصه: إخواننا.. الله الله في زيادة العلم ليلا ونهارًا مساءً وصباحًا؛ لأن العلم كاد أن ينقرض من بلدانكم، ولأن الجهل مطية: من ركبها ذلَّ، ومن صحبها ضلَّ... فعسى أن تحيوا لنا ما اندرس من العلوم، وأن تقوِّموا ما انطمس من الرسوم... ثم يختمها: وبلغوا مجموع المشايخ سلامنا.." (علي يحي معمر، 1399هـ/1979م، ص248-249).

4- البعثة الطلابية الجربية بمعهد الحياة بالقرارة:

حيث كان الالتحاق في البداية بصورة فردية، وإثر رحلة الشيخ بيوض إلى جربة سنة 1972م وبالتنسيق مع مشايخها كالشيخ سالم بن يعقوب والشيخ فرحات الجعبيري، تمَّ انتظام تسجيل الطلبة الجربيين للدراسة بمعهد الحياة، وقد وثَّق أحمد مصلح أسماءهم، حيث بلغ عددهم ستة وخمسين طالبا. ورغم تفاوت مستويات تخرجهم من المعهد فقد كانت لهم مشاركة هامة في رفع مستوى الوعي في جربة بالوعظ والتدريس(أحمد مهني مصلح، د.ت، ص15).

5- الإفادة من كتب نفوسة وجربة:

ودليل ذلك ما تحويه مكتبات مزاب وخزائنها من مخطوطات لمؤلفين ونساخ من نفوسة وجربة، كان عليها الاعتماد في حلقات التدريس.

ومما يندرج ضمن هذا المظهر تبادل الكتب ومتابعة آخر الإصدارات بين نفوسة وجربة ومزاب، واستنساخ المخطوط منها، فمن مؤلفات نفوسة: "الإباضية في موكب التاريخ" لعلي يحي معمر و"دراسات عن الإباضية" لعمرو خليفة النامي النفوسي، ومن جربة: "البعد الحضاري" لفرحات الجعبيري، ومن مزاب: "سلم الاستقامة لإبراهيم أبي اليقظان و"تاريخ المغرب الكبير" لمحمد علي دبوز.

6- تبادل الزيارات والمراسلات:

توثيقا لرابطة المذهب، وتثبيتا للمُزَار على نهج الاستقامة، أو أداء لواجب التهنئة أو التعزية أو المشاركة في فعالية علمية أو للدعوة والإرشاد وتفقد الأصحاب ومتابعة أحوالهم، فبين فترة وأخرى يتزاور العلماء وأحيانا مع لفيف من طلبتهم الموطن الآخر، حيث كان لهذه الزيارات آثارها الدعوية والتربوية والاجتماعية من خلال دروس الوعظ والإرشاد والاستشارات والاستفتاء، ومثالها زيارة القطب اطفيش

لجربة في رحلته إلى الحجاز سنة 1303هـ، ورحلة الشيخ بيوض (إبراهيم طلاي، د.ت، ص6) ورحلات الشيخ الناصر المرموري، وكذلك زيارات فرحات الجعبيري المتكررة إلى مزاب.

كما تكشف المصادر والفهارس عن نوع آخر من التواصل العلمي هو المراسلات والقصائد بين جربة ومزاب.

وقد وقف الباحث بشير الحاج موسى على نماذج (بشير الحاج موسى، 1439هـ/2018م، ص76-77) منها:

03 رسائل للشيخ داود بن إبراهيم التلاتي الجربي (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 140/2)، اثنتان إلى عموم أهل وادي مزاب، وأخرى إلى شيخه أبي مهدي عيسى بن إسماعيل المليكي (المكتبة البارونية، د.ت، ص447)، (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 325/2).

رسالة من الشيخ أبي مهدي عيسى بن إسماعيل المليكي إلى مشايخ جزيرة جربة (المكتبة البارونية، د.ت، 449).

رسالة من عزابة وادي مزاب إلى أهل جربة، حرِّرت على لسان محمد بن أبي القاسم المصعبي (ت:1129هـ).

4. المطلب الثالث: التعريف بأبي يعقوب يوسف بن محمد المصعبي وآثاره

1.4. الفرع الأول: التعريف بأبي يعقوب المصعبي:

هو العالم الجليل نزيل جربة وصاحب المواقف المحمودة والنشاط الاجتماعي الذي أحيا به الحركة العلمية بالجزيرة: أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي من عائلة آل ويرو، ولد ببلدة مليكة -من قرى مزاب- سنة: 1079هـ/1669م (الحاج سعيد، 1435هـ/2014م، ص107)، (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 491/2). وتلقى تعليمه الأول على يد والده الشيخ محمد المصعبي كما يشير لذلك القطب في شرح النيل (امحمد بن يوسف اطفيش، 1392هـ/1972م، 41/1).

ارتحل أبو يعقوب مع عائلته إلى جربة سنة: 1103هـ/1692م واستقر بها، ولا تذكر المصادر سبب هذا الارتحال أهو للتعلم أم للتعليم؟ ولعل الأرجح هو التعلم والتلقي؛ كون الجزيرة كانت وقتئذ عامرة بالعلماء، مزدهرة بالحلقات التعليمية.

تلقى أبو يعقوب العلم على مشايخ جربة، منهم: الشيخ سعيد بن يحي الجادوي الأجيمي (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 186/2)، الشيخ سليمان بن محمد بن يحي الباروني (سالم بن يعقوب، 2006م، ص192)، الشيخ عمر بن علي بن ويران السدويكشي (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 309/2).

في سنة: 1112هـ/ 1701م: سافر أبو يعقوب إلى تونس للاستزادة من العلم، ثم دفعه طموحه إلى السفر إلى مصر، فسكن وكالة الجاموس، وحضر دروسًا في جامع الأزهر كما واظب على حلقات الدرس بالوكالة. وقد أكَّد بنفسه تلقيه العلم حيث قال في حاشيته على تفسير الجلالين: "ومما اتفق لي حين كنت بمصر أن وقع لي كلام مع بعض طلبة الشافعية في شأن الصغائر فقلت له أنها تغفر باجتناب الكبائر بناء

على ما هو مذكور عندنا" (أبو يعقوب المصعبي، د.ت، ص187ظ).

عاد المصعبي بعد ذلك إلى جربة، وجلس للتدريس والإفتاء بمساجدها، بخاصة الجامع الكبير حيث كان كبير المدرسين فيه.

لما وقعت فتنة بالجزيرة اضطر إلى الخروج منها إلى جبل نفوسة رفقة شيخه سعيد بن يحي الجادوي، حيث استقر بها سبع سنين.

أوتي أبو يعقوب جرأة ومهابة واحتراما أهَّله لتولي مهام دينية وقيادية بجربة، حيث كان رئيس حلقة العزابة بالجزيرة ومفتيها وكبير علمائها ورئيس مجلس الحكم فيها، كما كان في نظر الدولة العثمانية ممثِّل إباضية المغرب وزعيمهم.

أثمرت جلسات تدريس أبي يعقوب أجيالا من الطلبة من الإباضية والمالكية برزوا بعد ذلك أعلاما في الفقه والتأليف والإصلاح الاجتماعي، منهم: أبو زكرياء يحي بن صالح الأفضلي باعث النهضة العلمية بمزاب، وسليمان بن محمد الشماخي، وعيسى بن قاسم الباروني.

كما تلقى العلم عن المصعبي أبناؤه: أبو عبد الله محمد (سعيد بن تعاريت، د.ت، ص108)، (سالم بن يعقوب، 2006م، ص148)، (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 406/2)، (محمد محفوظ، 1405هـ/1985م، 335/4) الذي تولى منصب والده في أغلب وظائفه، وأبو الحسن علي (سالم بن يعقوب، 2006م، ص151)، (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 295/2) الذي اشتهر بنسخ الكتب، منها حاشية والده المصعبي على كتاب أصول الدين لتبغورين (سعيد بن تعاريت، د.ت، ص110).

ختمت حياة أبي يعقوب المصعبي الحافلة بالبناء والعطاء ضحوة الأحد من صفر 1187هـ/1774م، وشيَّع جنازته جمع غفير من كل نواحي جربة، ودفن بروضة الجامع الكبير (سعيد بن تعاريت، د.ت، ص107)، (سالم بن يعقوب، 2006م، ص145)، (الحاج سعيد، 1435هـ/2014م، ص108)، (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 492/2).

2.4. الفرع الثاني: آثار أبي يعقوب المصعبي:

لم يقتصر أبو يعقوب على التدريس والنظر في قضايا الناس وشؤون الجزيرة، بل أسهم في التأليف، وترك مصنفات مفيدة، أغلبها حواشٍ، ولذا سمي المحشي الثاني بعد أبي ستة (سالم بن يعقوب، 2006م، ص145)، (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 492/2، 389/2)، كما ترك ردودا ورسائل، وأغلب تراثه لا يزال مخطوطا، منها (ابن تعاريت، د.ت، ص106)، (سالم بن يعقوب، 2006م، ص145)، (حمو الشيهاني، 1416هـ/1995م، ص38)، (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 492/2)، (محمد محفوظ، 1405هـ/1985م، 337/4):

1- الحواشي:

حاشية على أصول الدين لتبغورين الملشوطي، حققها حمو الشيهاني، وهي بحث مرقون مقدَّم لنيل

دبلوم الدراسات العليا، من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، سنة:1416هـ/1995م.

حاشية على تفسير الجلالين. وهو العمل الذي ينجزه الباحث في رسالته للدكتوراه

حاشية على شرح الجهالات لأبي عمار عبد الكافي.

حاشية على شرح الويراني للنونية أبي نصر الملوشائي.

حاشية على مختصر العدل والإنصاف للشماخي. ولم يتمه.

حاشية على كتاب الأحكام للجناوني.

حاشية على متن الديانات لعامر الشماخي.

حاشية على كتاب الفرائض للجيطالي.

ب.الرسائل:

- رسالة في الوصايا والحقوق، أجاب بها على الحاج شعبان القنوشي، وهي تضم مسائل مختلفة، أهمها الكفارات التي تلزم المسلم عند التوبة.

- رسالة في تنجيس أبوال الإبل.

-رسالة إلى علي باشا بن محمد (الزركلي، 2020م، 15/5) باي تونس، كتبها سنة: 1153هـ/1769م.

- رسالة إلى أحمد باشا (عمر علي بن إسماعيل، د.ت، ص32) والي طرابلس، سنة: 1169هـ/1756م.

2- الشروح:

شرح منظومة الذرائع. حقَّقها بشير الحاج موسى، وهي بحث مرقون مقدَّم لنيل درجة الماجستير، من جامعة أريس، الولايات المتحدة الأمريكية، في سنة: 1438-1439هـ/2017-2018م.

3- فتاوى وأجوبة:

لو جمعت لكوَّنت مجلدًا ضخمًا.

5. المطلب الرابع: دور أبي يعقوب المصعبي في تنشيط الحركة العلمية بجربة

يعدُّ أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي واحدا من أصحاب الفضل الكبير على جزيرة جربة، وذلك من خلال إسهاماته العلمية وحضوره الاجتماعي وتحمُّله لمسؤوليات قيادية تدل على ثقة علماء جربة وعزابتها في كفاءته، واطمئنانهم إلى حكمته وحسن تسييره، يقول إبراهيم طلاي متحدثا عن أبي يعقوب: «لهذا العالم الجليل آثار قيِّمة ومواقف محمودة ونشاط اجتماعي ثقافي. أحيا بذلك الحركة العلمية في جربة» (إبراهيم طلاي، د.ت، ص6).

ويمكن بيان دور أبي يعقوب في تنشيط الحركة العلمية بجربة من خلال الجوانب الآتية:

1.5. الفرع الأول: التدريس:

أوتي المصعبي تمكُّنا علميا، كأثر لتفرُّغه للتكوين لسنوات، حيث مكث سبع سنوات رفقة شيخه سعيد

بن يحي الجادوي بنفوسة (سالم بن يعقوب، 2006م، ص142). وكذا احتكاكه بحواضر علمية كالزيتونة والأزهر.

ولما عاد من مصر، وقد تمكَّن من العلوم النقلية والعقلية حيث عُدَّ آية في العلوم (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 492/2)، تفرغَّ للتدريس بالمسجد الكبير بحومة الحشان بجزيرة جربة، ويعدُّ هذا الجامع أقدم المدارس العلمية، إذ يعود تاريخ بداية نشاطه إلى القرن 5 هـ، وقد كانت للمسيرة التعليمية للمصعبي بهذا الجامع دورها في دفع الحركة العلمية بهذه المدرسة، كما امتدَّ نشاطه إلى مساجد أخرى وإن كان المسجد الكبير "محط رحله وكبير المدرسين فيه" (سالم بن يعقوب، 2006م، ص137).

أخذ عنه العلم طلبة كثيرون، وتخرج على يديه علماء أجلاء (سالم بن يعقوب، 2006م، ص145) من الإباضية والمالكية، عرَّف ابن تعاريت (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 181/2) ببعضهم في مواضع متفرقة من رسالته (سعيد بن تعاريت، د.ت، ص106)، ووثَّق سالم بن يعقوب قائمة بأسمائهم (سالم بن يعقوب، 2006م، ص148).

ومن هؤلاء التلامذة ابنه محمد الذي ورث عن والده أغلب وظائفه. وكذلك تلميذه أبي زكرياء يحي بن صالح الأفضلي الذي ارتحل من مزاب إلى جربة، وتفرغ لحلقة شيخه أبي يعقوب (امحمد بن يوسف اطفيش، 1392هـ/1972م، 26/1)، وبقي بها اثنتا عشر سنة، ثم سافر بعدها إلى مصر؛ ليستزيد من حلقات الأزهر ووكالة الجاموس، ثم يعود بعدها إلى مزاب وينطلق في وضع أسس حركة إصلاحية شاملة امتد بعد ذلك خيرها إلى القطب اطفيش وأبي اليقظان والشيخ بيوض.

وبهذا يكون لأبي يعقوب فضل في بعث النهضة الحديثة بمزاب من خلال تلميذه الأفضلي.

2.5. الفرع الثاني : التأليف:

لم يقتصر أبو يعقوب على التدريس والإفتاء، بل كان له دور في الازدهار الثقافي والرقي العلمي بجربة من خلال تآليفه الكثيرة في مختلف العلوم، بخاصة العقيدة والفقه. إضافة إلى معرفته الجيدة بعلم الفلك والخط والكيمياء (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 492/2).

وقد كانت للحواشي النصيب الأوفر من تآليفه، حتى سمي بالمحشي الثاني بعد أبي ستة (سالم بن يعقوب، 2006م، ص145)، (مجموعة من الباحثين، 1421هـ/2000م، 492/2)، وهذا تماشيا مع ميزة حركة التأليف في القرنين 11 و 12هـ، والتي هي من الناحية العلمية لا تقل أهمية عن التآليف الأصلية (فرحات الجعبيري، 1988م، ص49). حيث أبرز من خلالها المصعبي براعته في الاستشهاد ودقَّته في المقارنة وعمقه في التحليل، مع نقل أمين لأقوال المذاهب وإيرادها في محلها.

ومثال ذلك حاشيته الضخمة على تفسير الجلالين التي تعتبر من التأليف في التفسير الواحد الجامع لعدة معتقدات ومذاهب (عبد الغاني عيساوي، 2015-2016م، ص191). حيث استعان فيها المصعبي إضافة إلى تفسير الجلالين بتفسير البيضاوي [أنوار التنزيل وحقائق التأويل]، وتفسير الزمخشري [الكشاف]، وتفسير الشيخ هود بن محكم الهواري [تفسير كتاب الله العزيز] (أبو العباس الشماخي، 2009م، 566/2)، (هود بن محكم الهواري، 1990م، 6/1، 8، 21، 25، 37)، (أحمد الخليلي، 1404هـ/1985م، 35/1)، (يحي بن صالح بوتردين،

1410هـ/1989م، ص144، 146، 149)، وحاشية زكرياء الأنصاري على تفسير البيضاوي [فتح الجليل ببيان خفي أنوار التنزيل]، وحاشية التفتازاني على الكشاف، مع أخذه من حاشية الملا علي القاري [الجمالين للجلالين]، واعتماد كتب المذهب.

3.5. الفرع الثالث: جرأته في الحق ودفاعه عن المظلومين:

كان أبو يعقوب ذا شخصية مهيبة، يعظ الأمراء والحكام وينصحهم، ولا يخاف في الله لومة لائم، حريصا على الذود عن الحق بلسانه وقلمه. وتحفظ له المصادر مواقف في هذا، منها:

دفاعه عن شهادة الجربيين لما طعن في ثبوتها بعض فقهاء طرابلس، وقالوا: إن شهادتهم لا تجوز لأنهم غير مالكيين، فكتب ردًا إلى والي طرابلس أحمد باشا بن يوسف القرمانلي التركي، بيَّن فيها جواز شهادتهم معتمدا أقوال علماء المالكية، وذلك سنة: 1169هـ (سالم بن يعقوب، 2006م، ص144).

رسالته إلى علي باشا بن محمد التركي (1153- 1169هـ) باي تونس: لما بلغه أن أحد التونسيين يشتم الإباضية، فكانت رسالته أنموذجا للصلابة والذود عن نقاء العقيدة الإباضية ووصف سيرتهم الحسنة (سعيد بن تعاريت، د.ت، ص102)، (سالم بن يعقوب، 2006م، ص137).

على نهج أبي يعقوب سارت خطى ابنه محمد في بذل النصح والدفاع عن الحق، فقد ترأَّس وفد جربة إلى باي تونس: حمودة باشا الحسيني(خير الدين الزركلي، 2020م، 282/2)، لمناظرة علمائها وتبيين حقيقة الإباضية لهم (سعيد بن تعاريت، د.ت، ص109)، (سالم بن يعقوب، 2006م، ص149).

4.5. الفرع الرابع: ترؤسه لمجلس العزابة، ومجلس الحكم بجربة:

تشرف حلقة العزابة على تسيير شؤون الحياة في المجتمع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. ويرأس الحلقة في كل مدينة من مدن الإباضية شيخ الحلقة حيث يمثِّل سلطة الإمام العادل في مرحلة الكتمان (مجموعة من الباحثين، 1433هـ/2012م، 532/1).

غير أن نظام العزابة في جربة استحدث لما كثرت اعتداءات الإفرنج على الجزيرة وظيفة شيخ الحكم، حيث تسند إلى شخص يتوسَّم فيه العزابة الكفاءة فتوُكل إليه الشؤون الإدارية والسياسية والعلاقات الخارجية للجزيرة، ويمارس مهمته تحت توجيه حلقة العزابة وإشرافها. كما يتقلَّد رئاسة الحلقة أحد علمائها الأكفاء ويسمى بشيخ العزابة (علي يحي معمر، 1385هـ/1966م، ص422)، (مجموعة من الباحثين، 1433هـ/2012م، 272/1).

ونظرا لكفاءة أبي يعقوب العلمية فقد انتهت إليه مشيخة الحلقة، فكان ذلك دفعا جديدا لنظام العزابة وامتدادا لعطائها العلمي والتربوي والاجتماعي، حيث تولى مهمة "مفتي جربة ورئيس مجالس الحكم فيها، وله مجالس للتدريس في كثير من المساجد غير المسجد الكبير الذي هو محط رحله وكبير المدرسين فيه" (سالم بن يعقوب، 2006م، ص137).

فبفضل جهود أبي يعقوب المصعبي ثم ابنه محمد من بعده استمر نظام العزابة بجربة، ولولاهما لأفل نجمه من القرن الحادي عشر الهجري، حيث تراجع هذا النظام بوفاة ابنه محمد بن يوسف، ودبَّ فيه

الضعف، فأصبح لا يؤدي وظيفته (فرحات الجعبيري، 1975م، ص232).

وتكشف المصادر أن أبا يعقوب مارس أيضا صلاحيات شيخ الحكم، استنتاجا من المواقف الآتية (فرحات الجعبيري، 1975م، ص230):

فتواه التي أصدرها بمعية شيخه سعيد بن يحي الجادوي بإهدار دم أحد العصاة من حومة قَشعِين ثبت تجسُّسه وطعنه في الدين؛ وذلك حرصا منه على استقرار الجزيرة، وقطع دابر الفتن والفساد.

دفاعه عن شهادة الجربيين، حين طعن في ثبوتها بعض فقهاء طرابلس سنة: 1169هـ، وقد سبق ذكرها.

ومن هنا نجد أن أبا يعقوب قد تولى مهمة شيخ الحلقة وشيخ الحكم وهو أمر نادر الحدوث أن تجتمع المهمتان في شخص واحد، مما يؤكد مؤهلاته العلمية والشخصية وثقة أهل الجزيرة به. يقول علي يحي معمر: "وقد تجتمع المشيختان في النادر عند شخص واحد فحينئذ تكون جربة على أهنأ الأحوال"(علي يحي معمر، 1399هـ/1979م، ص262).

6. خاتمة

في ختام هذه الدراسة نسجِّل النتائج الآتية:

1. تعود بداية العلاقات بن مواطن الإباضية إلى عهد الرستميين، وقد كان للنشاط العلمي والدعوي والتنظيمي الذي اضطلع به أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي دوره الكبير في توثيق عرى العلاقات بين مختلف مواطن الإباضية، بخاصة بعد وضعه لنظام العزابة

2. ظلَّ التواصل العلمي بين جربة ووادي مزاب وثيقا، منذ عهد مؤسس نظام الحلقة أبي عبد الله الفرسطائي إلى العصر الحديث، وبرز من خلال جملة مظاهر، منها: هجرات العائلات بين الجانبين، انتقال العلماء بين جربة ومزاب، رحلات الطلبة العلمية، البعثة الطلابية الجربية بمعهد الحياة بالقرارة، الإفادة من كتب نفوسة وجربة، وتبادل الزيارات والمراسلات.

3. يعدُّ أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي نزيل جربة أحد علماء الإباضية في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري، حيث ولد بمليكة (وادي مزاب)، وارتحل مع والده إلى جربة، واستقرَّ بها. سافر إلى تونس ثم مصر، وعاد بعدها إلى جربة ليجلس للتدريس، كما أسهم في التأليف، وترك مصنفات مفيدة، أغلبها حواش، مع عدد من الردود والرسائل، وأغلب تراثه لا يزال مخطوطا.

4. أسهم أبو يعقوب المصعبي في الحركة العلمية والنشاط الاجتماعي بجربة من خلال تفرغه للتدريس، بالمسجد الكبير بحومة الحشان، فقد كان له تلاميذ من جربة ومن خارجها، وكان لبعضهم دور في امتداد الإشعاع العلمي بجربة كابنه محمد، أو خارج جربة كأبي زكرياء الأفضلي باعث النهضة الحديثة بمزاب.كما كان لتآليفه الكثيرة في مختلف العلوم دورها في الازدهار الثقافي والرقي العلمي بجربة.

5. لم يقتصر دور أبي يعقوب على التدريس والتأليف، بل كان له حضور اجتماعي، بشخصيته المهيبة، وقد انتهت إليه مشيخة حلقة العزابة، فتولى مهمة مفتي جربة ورئيس مجالس الحكم فيها.

7. قائمة المراجع

- القرآن الكريم.
- ابن تعاريت سعيد بن الحاج علي، (د.ت)، رسالة في تاريخ جربة، (نسخة مخطوطة).
- ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، (1408هـ/1988م)، تاريخ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، بيروت، دار الفكر.
- ابن فارس أبو الحسين أحمد، (1399هـ/1979م)، معجم مقاييس اللغة، دم، دار الفكر.
- ابن منظور محمد بن مكرم، (1414هـ)، لسان العرب، بيروت، لبنان دار صادر.
- أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، (1420هـ)، البحر المحيط في التفسير، بيروت، لبنان، دار الفكر.
- اطفيش امحمد بن يوسف، (1392هـ/1972م)، شرح كتاب النيل وشفاء العليل، بيروت، دار الفتح، بيروت، دار التراث العربي، ليبيا، مكتبة الإرشاد، جدة.
- بحاز إبراهيم، الدولة الرستمية، (1435هـ/2014م)، السيب، عمان، مكتبة الضامري.
- بن يعقوب سالم، (2006م)، تاريخ جزيرة جربة ومدارسها العلمية، إعداد: فرحات بن علي الجعبيري، تونس، مجموعة سراس.
- بوتردين يحي بن صالح، (1410هـ/1989م)، الشيخ محمد بن يوسف أطفيش ومذهبه في تفسير القرآن الكريم بالمقارنة إلى تفسير أهل السنة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس.
- الجرجاني علي بن محمد، (1405هـ)، التعريفات، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي.
- الجعبيري فرحات، (1988م)، دور المدرسة الإباضية في الفقه والحضارة الإسلامية ، تونس، دار الجويني.
- الجعبيري فرحات، (1975م)، نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة، تونس، المعهد القومي للآثار والفنون، وزارة الشؤون الثقافية.
- الحاج سعيد يوسف بن بكير، (1435هـ/2014م)، تاريخ بني مزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، غرداية، الجزائر، المطبعة العربية.
- الحاج موسى بشير، (1438-1439هـ/2017-2018م)، شرح نظم مسائل الذرائع لأبي يعقوب يوسف بن محمد المصعبي الجزائر نزيل جربة دراسة وتحقيق مع تطبيقات على نماذج من صيغ التمويل الإسلامي المعاصر، رسالة ماجستير، الولايات المتحدة الأمريكية، جامعة أريس.
- الحموي ياقوت بن عبد الله، (د.ت)، معجم البلدان، بيروت، لبنان، دار الفكر.
- الخليلي أحمد بن حمد، (1404هـ/1984م)، جواهر التفسير أنوار من بيان التنزيل، مسقط، سلطنة عمان مكتبة الاستقامة.
- الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد، (2016م)، طبقات المشايخ بالمغرب، السيب، عُمان، مكتبة الضامري.
- الزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، (2020م)، الأعلام، دار العلم للملايين.
- الشيهاني حمو بن عيسى، (1415-1416هـ/1994-1995م)، حاشية أبي يعقوب يوسف بن محمد المصعبي على أصول الدين لتبغورين، حققها حمو الشيهاني. بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، تخصص: العقيدة والأديان، جامعة محمد الخامس، من كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- الشماخي أبو العباس أحمد بن أبي عثمان سعيد بن عبد الواحد، (2009م)، السير، بيروت، لبنان، دار المدار الإسلامي.
- طلاي، إبراهيم بن محمد، (د.ت)، العلاقة بين سكان جربة ووداي مزاب، (الأيام الدراسية من الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي إلى الشيخ حمو بن موسى عمي سعيد، محاضرة مرقونة).

• طلاي إبراهيم بن محمد، (1970م)، مزاب بلد كفاح دراسة تاريخية اجتماعية تلقي الضوء على نشأة هذا البلد وحياة ساكنيه، قسنطينة، الجزائر، دار البعث.
• عمر علي بن إسماعيل، (1795– 1835م)، انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا، طرابلس، ليبيا، مكتبة الفرجاني.
• عيساوي عبد الغاني، (2015/ 2016م)، جهود علماء الجزائر في علم التفسير زمن العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة 01، كلية العلوم الإسلامية.
• مجموعة من الباحثين، (1421هـ/2000م)، معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي.
• مجموعة من الباحثين، (1433هـ/2012م)، معجم مصطلحات الإباضية، سلطنة عمان، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.
• محفوظ محمد، (1405هـ/1985م)، تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي.
• المصعبي أبو يعقوب يوسف بن محمد، (د.ت)، حاشية ذي الجلالين، (نسخة مخطوطة، فهرس المكتبة البارونية، رقم:01).
• مصلح، أحمد بن مهني: (د.ت)، علاقة جزيرة جربة بوادي مزاب، (الأيام الدراسية العلمية من الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي إلى الشيخ حمو بن موسى عمي سعيد، محاضرة مرقونة).
• معمر علي يحي، (1399هـ/1979م)، الإباضية في موكب التاريخ –في الجزائر، حلقة4، القاهرة، مصر، مطبعة الدعوة الإسلامية.
• معمر علي يحي، (1385هـ/1966م)، الإباضية في موكب التاريخ –في تونس، حلقة3، بيروت، لبنان، دار الثقافة.
• المكتبة البارونية، (د.ت)، فهرس المكتبة البارونية، إعداد: جمعية أبي اسحاق اطفيش لخدمة التراث، (مرقون).
• الهواري هود بن محكم، (1990م)، تفسير كتاب الله العزيز، بالحاج بن سعيد شريفي، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي.